خليل مطران

الرجل والشاعر

١٨٧٢–١٩٤٩

كأنما كان الخليل ينظر من سجف الغيب دنوّ منيّته ، عندما خاطب تمثالاً نصفيًا له بقوله :

مثالي إنني أرنو إليك وإنّ بي رفقا
دنا أجلي فيا جذلي ولكن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى [1] ؟

وصدقت نبوءة الرجل ، فما كادت تنقضي سنتان على هذه المناجاة حتى زفر الخليل آخر أنفاسه وثوى بين ظلال الموت ، وأضواء الخلود .

أجل ، مات الخليل في مساء ٣٠ يونيو ١٩٤٩ بين انتفاضات القلوب الشاعرة ، ولوعات الأرواح المتصوّفة ، وموته فقد الشرق العربي ، رجولة ممتازة ، وشاعرية نابغة .

وما ريب أن خسارتنا الانسانية والخلقية بفقده ، لا تعادلها إلاّ خسارتنا الأدبية والفنية بموته ، فلقد كان الرجل فذًّا في الأدباء ، إذ توحدت فيه الشخصية بالنبوغ ، واتّسم بخلال قلبية وعقلية نادرة في زملاء ، نحن أحوج فيه الى من يرفع أرواحنا ، ويضرب لنا المُثل في حب الخير والتواضع والأريحية والايثار .

وهل في أدبنا الحاضر ، أجل وأبدع مما قاله هذا الرجل ، في أواخر أيامه ؟

كان في الشعر لي مرام خطير فعدا طوقي المرام الخطير

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك سنة ١٩٤٧ ص ١٦

هائمٌ في الوجود أسأله الوحـ ـي كما يسأل الفتى الفقير
أكبروني ولست أكبر نفسي أنا في الفن مستفيد صغير
لا يضق صدر شاعر بأخيه يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها ليس تحصى شموسها والبدور
كل جرم يعلو ويصبح نجماً فله حيز وفيه يدور
والنجوم التي تلوح وتخفى ربوات وما يضيق الأثير[1]

* * *

تلكم النفحات الشعرية التي تليت في حفل تكريمه بين الوجوه المشرقة، نتلوها اليوم بين الحسرات المكتومة، ونجد فيها العبرة، والهمسة الخفية الموحية بأنبل عاطفة، إنها تسير حقّ لفطرة الرجل الأصيلة، فطرة حلب التي اعتلجت بين جوانحه صغيراً، وراودته شاباً، وسمت ودقت في كهولته وشيخوخته — أنها الشريان الهام في نسيج هذا القلب الكبير الذي ضوأ بالحب النبيل في شبابه وعبّر عن هذا الحب في قصيدته «حكاية عاشقين»[2] وبقيت أعطار هذا الحب بعد موت حبيبته، وأفصح عن بقائه في القصيدة التي ناجى فيها عصفورة رآها في جنيف، قرب تمثال جان جاك روسو[3] فقال: —

سيري وولّي صدرك الـ مشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته وشرعت أعذب مشرع
عُوجي ببستان هُنا لكَ في الغراء معبَّع
لي في ثراه دفينةٌ كالكنز في المستودع
تخفي الأزاهر قبرها عن أعين المستطلع
قولي له إن جئته يا أنس هذا البقع
أتُحس في هذا الثرى نبضات قلب موجع؟
هذا حنين من ثوا ك محبك المتفجع

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٢ ص ١٤٩
(٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٦٠ (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢١

ولم يقف حب هذا القلب الكبير عند الحب الخاص النبيل ، بل امتدّ ، وامتدّ ، الى حب الموطن الأول ، والحنين إليه حنيناً لاهباً تشهد به طائفة من قصائده ، مثل « قلعة بعلبك » [١] و « التأليف بين القلوب » [٢] و « تشوق » [٣] وتتحدّث به قصائده في موطنه الثاني مصر في مثل « يا مصر » [٤] والى « حافظ ابراهيم » التي جاء فيها قوله : "

« مصرُ » الحضارة والآثار شاهدة ... « مصر » السماحة مصر المجدُ من قِدَم
« مصر » العزيزة إن جارت وإن عدلت ... « مصر » الحبيبة إن نرحل وأن نقُم
جئنا حماها وعشنا آمنين به ... ممتعين كأن العيش في حُلُم

واكتمل حب الرجل ، واتسع مجاله فشمل الانسانية بأسرها ، وآيات برّه الايجابي . تتناقلها الألسن ، وتنطوي عليها قلوب العارفين ، والآونة الحاضرة ، لا تتيح الكشف عنها ، ولكنا نجد تصوير هذا الروح الانساني النبيل مبثوثاً في كثير من شعره . وبخاصة شعره القصصي الذي فتح به فتحاً جديداً في عالم الشعر الحديث ، فإنا لنراه يتألم لمصير هوّادة متسولة تموت مريضة بعد زواجها بعام في قصيدته البديعة « وفاء » [٥] ونلحظه ينعى على الجماهر التي تقتل جنينها ، في قصته الشهيرة « الجنين الشهيد » [٦] ونسمعه يترحم على الشاب السري الذي يلقي بنفسه في الماء لخيبة حبه في قصته « المنتحر » [٧] ونلمس ثورته على أحد رؤوساء المذاهب الذي أصرّ على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تمّت بغيته ، لألحق بولدها البريء العار ، وهذه الثورة الهادئة تضمنتها قصته « الطفل الطاهر » [٨] وهي من أروع قصصه الشعرية على الاطلاق ومن نبع عاطفته الانسانية العميقة ، ومما جاء فيها قوله ، مخاطباً الطفل البريء ، وناهياً على القس العاتي :

يا طفلُ قلّب طرفك المترددا ... أو ما ترى شبحاً هيوساً أسودا
متجسماً لك من وراء ستار

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٧٧
(٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠٧
(٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٣٢٨
(٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢٦٦
(٥) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٨٤
(٦) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٩٩
(٧) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٥٧
(٨) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٤٦

هذا أساه اليك قبل الموعد وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب الغمام
لكن أراك تبش بشّة سامح وأراك ترمقه بعين الصانع
ما للهلال وللسحاب الساري

ولسنا نجد تدليلاً على تبيان تأصل فطرة الحب في قلب هذا الرجل الكبير، أقوى وأروع من قصيدته «هل تذكرين»[1] فهذه القصيدة مع حلاوة موسيقاها وجمال صياغتها، تعد الباحث، بعض النبات الأصيلة للخليل، لأنها تروي بعض ذكرياته، ومن هذه الذكريات يجد السيكولوجي مصدراً فذاً لتعرف شخصية الرجل، ورغباته في الحياة[2]، فهو يروي فيها تجواله مع إحدى بنات عمه وقريبة أخرى، وصاحبة ثالثة، وهو معهم في روضة، وقطفهم العنب منها، ثم اشاحته به الى الرفيقة الغريبة، ومحاولته إدخال البهجة على قلبها، وعمل لعبة من الصلصال لها في هيئة عصفور، ومما جاء في هذا القصيد عن ذكريات حبه الساذج وطهره البريء قوله:

هل تذكرين ونحن طفلان عبداً رحلة كله غُنْمُ
إذ يلتقي في الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرمُ
هل تذكرين بلاءنا الحبلا حين اقتطاف أطايب العنب
نُعطي ابتسامات بها ثمناً وبنا كفتوتها من الطرب

ثم تساؤله عن النهر في القصيد ذاته يؤيد حبه لجمال الطبيعة، واندماجه فيها، وأنه في ذلك يقول:

والنهر، هل هو لا يزال كما كان لذاك العهد فاتنه
يمشي الغياض زُلالة الشجا ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب منطلقاً على الصخر ويسير معتدلاً ومنعرجا
يطغى حيال السد أو يجري متضايقاً آناً ومنفرجا

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٣٥.

(2) Adler — What life Should mean to you.

متخللاً خضر البساتين متهللاً لتحية الشجر
متضاحكاً ضحك الجنين لملاعب النسمات والزهر

ثم وصفه لجمال الصاحبة الغريبة وانجذابه اليها يعزز فطرة هذا القلب المتيم في الطفولة وفي ذلك يقول :

ما أنس لا أنس المقيق وقد جزناه بعد السيل نفترج
كان الربيع وكان يوم أحد ومسيرنا متمعج زلج
و« نبيهة » الكبرى ترافقنا مجهودة ضجت من التعب
ولها صويحبة ترافقنا حسناء كل الحسن في أدب
ضحاكة كالنور في الزهر رقاصة كالغصن في الوادي
كرارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الشادي

ثم يروي بعد هذا أثر سحر الجمال فيه ، وما أوحى اليه من صنع لعبة لحبيبته ، وفي هذا الصنع دلالة مبصرة على استعداده الفطري لحب الفن والخلق ، وفي ذلك يقول .

حسن تملكني فأدبني ما شاء في قولي وفي فعلي
وبمثل لمح الطرف أكسبني خلقاً وعلمني على جهل
أوحى الي ّ دداً أجربه في آية من فطنة ودد [1]
فجمعت صلصالاً أركبه وصنعت عصفوراً لها يدي

ولم يتمالك الشاعر أن يطير إعجاباً وفرحاً بهذه اللعبة التي صنعها على عين حبيبته ، فأبدى عجبه بما جبل ، وان لف هذا العجب في وشاح شفاف من التواضع ، قال :

صوّرت شبه الفرخ في وكر من غير سبق لي بتصوير
فأتى على ما شاءه فكري ورضيت عن خلقي وتقديري
ما كان هذا الفرخ معجزة فتانة الاتقان والحسن
كلا ولم أجعله معجزة [2] لكفاءة الحذاق في الفن

فهذا القصيد الفريد الذي أطلنا الوقفة عنده ، يحمل جملة دلالات على بعض خلال

(١) الدد = اللعبة (٢) معجزة = ما يعجز الغير عن الاتيان بمثله .

الرجل الأصيلة ، وهي (١) حبه المتأصل في صباه (٢) ونزوعه الى الجمال الطبيعي والانساني (٣) وشغفه باسعاد غيره (٤) وابراز هذا الشغف بطريقة عملية فنية (٥) وعجبه بصنعه ، عجباً مقروناً بالتواضع .

* * *

وهناك سمات أصيلة أخرى غير ما ذكرنا نعتقد أنها حكمت شخصية الخليل ، وهي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة ، والاقدام الذي قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذي نأى به عن مواطن التذلل حتى في أحلك الساعات ، وثبات خلقه ، وحيويته الدفاقة ، وهذه السمات تجنّست في مراحل حياته ، وتلوّن بها شعره ، وبرزت واضحة جلية في ملامح وجهه .

وأبرز هذه السمات ، وأصلها تحرره ، وجرأته ، وإباؤه ، ولا أدل على تحرره من نفوره من الظلم في يفوعته ، وهجرته بعلبك موطنه الأول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لأعلام الوطنية أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ونزعته التجديدية في الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة ، وقصائده الشهيرة « مقتل بزرجمهر [1] التي نادى فيها بالشورى وكراهية الحكم الفردي و « الطفلة البورية »[2] التي روى فيها ابتهال طفلة صغيرة الى الله لنصرة أبيها وقومها في الحرب — و « فتاة الجبل الأسود »[3] التي روى فيها بطولة المرأة ودفاعها عن وطنها وغيرها من القصائد الا آيات بيّنات على أنفته من الظلم ودعوته الى الحرية .

وأبلغ آية على هذه الطبيعة المتحررة في رأينا ، قصيدته التي دافع فيها عن حرية الرأي وحمل على قانون المطبوعات في مصر ، وكان من نتيجة هذا الدفاع أن هدّده رئيس وزارة ذاك الزمان بالنفي ، فكان من الرجل الحر إلا أن أجابه بقصيده الرائع الموسوم بـ « تهديد بالنفي »[4] وهو أصدق شاهد على تأصل نزعته الحرة وفيها يقول :

أنا لا أخاف ولا أرجّي فرسي مؤهبة وسرجي ،

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٩٩ (٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٣٢
(٣) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٠٤ (٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٩

فاذا نبا بي متن برّ فالطيبـة بطنُ لجُ
لا قولَ غيرَ الحق لي قولٌ وهذا النهجُ نهجي
الوعد والإيعاد ما كانا لديَّ طريق فلج (١)

وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزهتان صديقتان هما الجرأة والإباء، وقد انعكس أثرهما في عمله وفنه ، ويبدو لنا أنه ورثهما من أمه المقدامة الحساسة ، وتجسمتا في وجنتيه العاليتين . وتنوء عظم الوجنة ، كما يقول المتفرسون المتعمقون آية الجرأة ، بل المجازفة .

ولا أدل على روحه الجريئة المقدامة من شغفه في صباه بركوب الخيل ، والسبق على متونها ، وقد سبب له هذا الشغف ، أن وقع كما يقول الدكتور اسماعيل أدهم مرة من فوق أحد الجياد فتكسرت بعض أضلاعه ، وتهشمت أرنبة أنفه وبقي أثر هذه السقطة في أنفه طول حياته .

وتجلت شواهد هذه الجرأة في بعض أعماله ، فلقد اشتغل الرجل بعد ترك أعماله الصحافية بالأعمال الزراعية والتجارية ، وقام بالمضاربات ، فكسب كثيراً وخسر كثيراً ، وقد انتهت به إحدى هذه المضاربات إلى خسارة فادحة ، فتوارى في أثرها عن الناس ، وأعرب عن حالته النفسية الآلية بقصيدته الشهيرة الرائعة « الأسد الباكي » (٣) التي جاء فيها قوله :

وكم في فؤادي من جراح تخيفةٍ يُحَجِّبُها بُردايَ عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأتُ وحاجتي ملاقة جوٍّ لم يُدنَّس بأرجاس
أُسَرِّي همومي بانفرادي آنساً مكايد واشٍ أو غمائم دسّاس
يخالون أني في متاع حياتها وأيُّ متاع في جوار لديماس (٤)

وأروع تصوير لنفسه الحزينة الآبية قوله في القصيد ذاته :

ذروني أنكّس هامتي غيرَ متّقٍ ملامة روّاد وشهبة جُوّاس (٥)

(١) الفلج = النهر (٢) بحث الدكتور اسماعيل أدهم « مطران شاعر البرية الابتداعي » للتفتيش ١٩٣٩ وهو أدق وأوفى بحث عن شعر خليل مطران (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٢
(٤) الديماس — الحفير من الارض (٥) جواس : جمع جاسس وهو الطائف في مكان .

فيحُرّةٌ بكرٌ ضُلُوعي سياجُها أراش عليها سهمه معتد قاسي
أعيد إليها كل حين نواظري وأُخْفِضُ من عطفٍ على جرحها راسي

وأبلغ دليل على هذه الجرأة، هو شعره الجديد الذي وثب به وثبة بعيدة، لا يقدر عليها إلا موهوب جريء، وأيّنا قلبنا شعره، وجدنا تجارب شعرية لم يطرقها أحد قبله، وطلاقة بيانية وأسلوبية، وتحرراً من عبودية القافية، لا نعرف شاعراً سبقه إليه، وشاهد هذا التحرر في القافية قصيدته البديعة «فنجان قهوة» [1] التي دبجها في أواخر عام ١٩٠٢، وتُعدّ هذه القصيدة في رأينا آية جرأته الفنية، والبذرة الأولى في الشعر المرسل وقد استهلها بقوله:

البحر ساجٍ والكنينة سائده والليل داجٍ والمدينة راقده
عمر الظلام عضابها وجالها وقلاعها وصروحها فأزالها
شبه المحيط المستوى وبقاعه ما لا يرى من شطّه وبقاعه
لا نجمَ في الأفق المحجب سافرٌ خلل السحاب ولا سراج ساهرُ
وإذا أصاخَ الى الجهات مطيفُ سمعاً فلا ركز يحسُّ خفيفُ
إلاّ خُطا شبحٍ ضئيلٍ هائمٍ كالوهم يسري في خيلة واهم

* * *

ولم يسابر الخليل في مراحل حياته، وقفات شعوره، ودفعات جرأته، بل كبحت البيئة الظالمة وصروف الحياة، وآلام الرجل وغربته، خلائقه الفطرية الأولى التي ألمعنا إليها، فاتكأ كثيراً على نفسه، وقمع انفعالاته وعواطفه الجارفة، وذلك بقوة عقله وشدة حاسة ضميره، وفي هذا يقول الخليل في حديث له: [2]

«في المعاودة وجدها تاريخ تكويني شخصيتي. فقد كان هناك عاملان يتعلان في نفسي: «شدة الحساسية ومحاسبة النفس» وبهذه المحاسبة، أدخل الخليل عنصراً جديداً على نفسه. وتمكن من إيجاد التوازن في شخصيته، وان قلّل هذا العنصر من حرارة كثير من أعماله الفنية

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٣
(٢) هامش صفحة ٦٤ الدكتور اسماعيل أدم — في كتابه «مطران شاعر الشرية الابداعي».

وآثار هذه المحامية نجدها في بعض قصائده الوطنية التي كان يرمي من ورائها الى اشعال الروح الوطني ، وإن رمز ولم يصرح بهدفه وستر ولم يكشف ، وشاهد ذلك ، قصيدته « شيخ أثينة » [١] وهي نذير الى أهل أثينة الأذلاء لمقاومة استعمار الرومانيين الغاشم ، وقد اتخذ — كما يقول الأستاذ العزيزي [٢] « شيخ أثينة » ينفث في كل بيتٍ من أبياته روحه المتألمة لذل قومه ، كما اتخذ من قصيدة « مقتل بزرجمهر » السابق التنويه بها ، أداة لإبراز جبروت السلطان عبد الحميد ، عند ما شاهد أحرار العرب يقتلون ، وشاهد السلطان عبد الحميد لا يرمي لهم إلاَّ ولا ذمَّة ، لأنهم قد ارتضوا العبودية ، وسكتوا عن مظالمه ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه كان الحرام وما تحلُّ حلالا
وليُذكرنَّ الدهرَ عدلك باهراً ولتحمدنَّ خلائقاً وفعالا
لو كان في تلك النعاج مقاومٌ تلك لم تجيء ما جئته استفحالا

فالعهد الاستبدادي المظلم الذي عاصره ، وشهد فيه اشلاء المنقوم عليهم يثقلها الحديد وتطرح في أعماق السفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف . فتقفر حقولها وتغل أعناقها ، علته هذه الاحداث المخيفة ، أن يكون ناقماً يكظم نقمته ، وثائراً يجتر ثورته [٣]

وتشهد قصائد كثيرة أخرى بتغلب عقله على عاطفته ، وهذه القصائد قد نعجب بها ، ولكنها لا تضرب بأوتارها في قلوبنا ، وهذا ما نلمسه في بعض قصائده الوجدانية مثل قصيدته « العالم الصغير مرآة العالم الكبير [٤] التي تحدَّث فيها الى احدى حبيباته ، ولكنه مال عن مناجاتها الى فلسفة ما حوله من احياء الكون ، وقد استهلها بقوله :

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٦١

(٢) « المجلة الجديدة - مايو ١٩٣٧ العدد الخاص من السنة السادسة مقال للاستاذ روكس زايد العزيزي بعنوان « خليل مطران وشعره »

(٣) المرجع السابق

(٤) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٩ — وكتبناها « الشعر المعاصر » ص ٧٢

أرأيت صوغ الدرّ في العقيان هذا حباب البن في الفنجان
فلكٌ تمثل شمسُه ومجومه أفلاكنا في السير والدوران
ليلى أجيلي الطرف فيه تنظري سر الكيان وآية الأزمان
تهدي سماواتٍ وسعنَ عوالماً فتانة الابداع والاتقان

***

فهذا التعقل الذي ساد أكثر حياته ولوّن شعره، هو ثمرة من ثمرات حياته الخاصة وضغط المجتمع الذي عاش فيه، فاضطره الى مجاملة الناس في أفراحهم وأتراحهم، ولهذا زخر شعره بالمديح والرثاء والتهاني في محفلات الرفاف، وقد كان أكثر هذا الشعر متكلفاً لانه لم يصدر فيه عن طبيعة أصيلة، ولم يخف الخليل هذه الاعراض التي طرأت على فطرته الأولى، بل عبّر عنها في قصيدة له مرفوع الى ناشر الديوان، ضمنه مجاملته الناس في الرخاء والبأساء، واغتفاره زلاتهم، وجريانه، كما يقول على حكم النهى، دون مغالبة القدر[1] ويقول الانصاف ان الخليل، وان هادن في بعض الأحيان فانه لم يهادن مرة على حساب الحق والضمير، كما كان يفعل أدباء جيله، بل استمسك بالحق دائماً، ولم يتقلب مرة أو يتذبذب، وهذه فضيلة يذكرها له الجيل الحاضر الصاعد.

ونعتقد أن «العزيزي» في مقاله خليل مطران وشعره[2]، الذي درجه في المجلة الجديدة عام ١٩٣٧، لم يكن موفقاً في الحملة على الخليل لمجاملته الناس، لأن هذه المجاملة، ليست ملقاً كما ادّعى، انما هي نزول على اعتبارات اجتماعية، ما كان لمثل قلبه الكريم الطيب، أن يزورّ عنها، أو يتحلل منها.

ونحسب أن ما جاء في شعره في الأغراض سالفة الذكر، لا تمثل حقيقته النفسية الأصيلة وإنما الذي يمثل هذه الحقيقة، هو شعره الوجداني الخالص وهو في اعتقادنا شعره الخالد، هو هذا الشعر الذي نسج من شعوره الدفّاق معبراً فيه عن خليقة أصيلة فيه مثل عاصفة الحب ونمثل لهذا بقصيدته «هل تذكرين» التي حللناها سابقاً، أو معبراً عن انفعال الألم

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٩٣ (٢) المجلة الجديدة «خليل مطران وشعره» للاستاذ روكس زايد العزيزي — شرق الاردن: مايو ١٩٣٧ العدد المخصص من السنة السادسة.

واليأس في مثل قصيدته « الأسد الباكي » التي أسلفنا على ذكرها ، أو معبراً عن انفعالات نفسية وعواطف منوّعة ، كما في رائعته الباقية « الماء » [1] التي تحدث فيها عن حبه ، وآلام نفسه ، وجلال أحياء الكون حوله وقد لفّ خواطره في وحدة كاملة ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

متفردٌ بصبابتي متفردٌ بكآبتي متفردٌ بعنائي
شاكٍ الى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
والبحر خفّاق الجوانب ضائق كمداً كصدري ساعة الامساء
والأفق معتكر قريحٌ جفنُهُ يغضي على العبرات والاقذاء

وقوله في القصة الثانية :

يا للغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للرائي
أوليس نزعاً للنهار وصرعةً للشمس بين جنازة الاضواء
أوليس ظمأً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء
أوليس محواً للوجود الى مدى وإبادة لمعالم الاشياء
حتى يكون النور تجديداً لها ويكون شبه الموت عود ذكاء [2]

فهذا القصيد ، يعبر تعبيراً صادقاً عن حالة الرجل النفسية ، وهو عندما عادة صالحة لتعرف شخصيته ، فهو يكشف بادي الرأي عن حبه المتأصل لطبيعته ، ولهفته لجمال الطبيعة ويُبين لنا قواه التفكيرية وخياله الخصب ، وتمازج هذه القوى بقواه الشعورية ، وفضلاً عن ذلك فإنه يلقي للسيكولوجي ضوءً ، على طابع شخصية الرجل ، فالقصة الأولى التي أتينا بها قريباً هي تعبير ذاتي عن آلام الرجل ، والقصة الثانية ، هي تعبير موضوعي عن الغروب وما يلابسه من خاطرات ، ومن هاتين ، يمكن القول بأن الخليل حتى في قطعه الوجدانية الذاتية ، يترك التعبير عن نفسه الى التعبير عن الدنيا الخارجة ، فهو في التعبير

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١١٩ (٢) ذكاء = الشمس

الذاتي يمثل الانطوائية ، وفي التعبير الموضوعي يمثل الانبساطية ، وفي الجمع بينهما في قصيد واحد يمثل الطابع المتوسط بينهما [١]

فهو يجمع حظًّا من صفات الانطوائي ، وقسطاً من صفات الانبساطي ، حتى ليتعذر الحكم أي صفات هذين الطابعين تغلب عليه ، ومن صفات الطابع الأول ميله للتأمل ، والتفكير ومقدرته الأدبية ، ومثاليته ، وحبه للعزلة ، ومن دلائل ذلك : قصيدته الطويلة عيد الميلاد[٢] التي بلغت الأربعين بعد المئة بيت ، وفيها قوله :

أحْبِبْ بكل عزلة يأوي إليها الرجُلُ
وإن تكن كحجرتي لا شيء فيها يجمُلُ
في هذه الغرفة أخْلُو للمعاني خَلْوَتي
أسكبُها في عَبراتٍ مُرَّةٍ أو حُلْوَة
هنالك الاستقلالُ في أسمى معاني الكلمهْ
لا يَتَهَمُ الانسانُ عينيهِ ولا يخشى فَمَهْ
أستنزل الوحي لنفعِ الناس إن يُسَّر لي
وامنح المذوَ بلا ضنٍّ وأكفي عَذَلي
هناك ألقى الله بل ألقى ضميري آمنا
وليسَ كلٌّ ساكنٍ بيتاً يبيتُ ساكنا [٣]

وقد برزت نزعته الانبساطية في سور عملية شتى من البر والمؤاساة ، وحب الاجتماع وحب العمل ، والتساوق مع الدنيا المتغيِّرة ، وشواهد هذه النزعة في شعره ملموسة في كثير من الموضوعات العامة التي تناولها تناولاً عامًّا مقترناً بالفلسفة الخفيفة ، وفي تصويره الأشياء والشخوص تصويراً واقعيًّا ، وشعره زاخر بالآيات الشاهدة على هذا الاتجاه ، ونكتفي هنا بإيراد بعض ما جاء في قصيدة « السيدة التاجرة »[٣] مثالاً على طرقه الموضوعات

(١) كتابنا « الشعر العاصر » ص ٧٣ (٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢١٦ إلى ص ٢٥٥
(٣) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٧٣

والسيكولوجية ، فترجم كتاباً في الاقتصاد السياسي ، وكتاب « تعليم الارادة »[1] لبايو Parot وكتاباً في التاريخ الطبيعي لفيكتور «دوري Victor Dury وكانت هذه الترجمات ، كما يقول الاستاذ زكي طليمات لا مثيل لها من حيث سلامة العبارة ، وقوة الأسلوب ، ووضوح المعاني [2] وفضلاً عن هذه الترجمات فقد الف كتاب « مرآة الأيام » .

وهذه المجهودات الأدبية الجبارة هي شهادة بالغة على عقلية الرجل المركبة ، وحيويته الدفاقة وعلى ايمانه بالعمل الذي لم يجده بعد سن الاربعين بسنتين في إحدى قصائده الطنينة إذ قال :

يظل المرء في دنيا ... من شغل الى شغل
يُجدُّ مُنى ويخليقُها ... على الأعوام كالخلل
ومن سنة الى سنة ... يعاودها بلا ملل
فمن أمل الى يأس ... ومن يأس الى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى ... ولا مجدٌ سوى العمل[3]

* * *

والحق أن الخليل مع تمثيله عصره أجلى تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبزّ معاصريه من الأدباء في ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه في خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجاً فريداً من المثالية المحلقة في الخيال ، ومن الواقعية المؤسسة بالجهاد وحب العمل في الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتتين على الأرض ، ورأسه يطوف في السماء ، وقد عاش في صباه شاعراً جريئاً مبتكراً ، وعاش على الأرض ، رجل دنيا ، كما يقول ، يشاطر الناس أفراحهم وأتراحهم ويعطف على بأسهم وفقرائهم ، ويسخط من حكامهم الظالمين المتنطسين ، وينادي بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل أحب كل طبقة ، وإذا قرّع في شعره الشعب لاستكانته للظلم فهو تقريع المحب الواثق بسعادته ، وأما من ثلبه

(1) L'Education de la volonté.

(٢) الكتاب الذهبي « لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٧ ص ٦٣

(٣) قصيدة « ذكرى عام ١٩٠٣ » — ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠١

ومصافاته لكبار الرجال وذوي الجاه والأغنياء، فراجع الى حذره وحبه في كسب قلب كل طبقة.

وقد عبر شعره عن حياته وعن نفسيته تعبيراً صادقاً، فهو شاعر رومانتي يهيم بالحب هياماً، ويشغف بالجمال شغفاً كبيراً، وتبدع ريشته في مجالي الألم أيما إبداع، وقصيدته الوجدانية «مثال في مرآة»[1] مثال للرومانتيكية المبدعة، موضوعاً وأسلوباً لأنه أعرب فيها عن ألم الخازب لموت حبيبته وبكائه عليها، وانه ليقول في طلاقة أسلوبية، وموسيقى سلسجية:

كنا كغصني دوحة نبتا بل زهرتي غصن تعانقتا
بل حبتين بزهرة عنبا ونساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب
تحت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر
أودت معاً بالعين والأثر واستبقت الباقي من الخبر
ذكرى وتبصرة لذي لب

ثم يقول: ماتت وكل ضاحك جذل ما الورى ولمرت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللطف والأمل
وشبابها وطهارة القلب
ماتت ونور الفجر مرتسم في الماء فهو أغر مبتسم
والروض زاهٍ بالندى شبم والطير تصدح فيه والنسم
والزهر والأغصان في لعب

ومن أروع قصائده الرومانتيكية التي يصف فيها ألمه في مرضه قصيدة «الأثر الباقي»[2] وهي في الحق من آثاره الخالدة، وقد جاء فيها قوله:

الله في صدر وهى وتقوّست منه العظام
غار كجوف الغار تملأه المخاوف والظلام

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٢ (٢) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٨

إلاّ سراجاً حائلاً فيه ينير بلا ابتسام
روح تضيء على ضريح في صميم القلب قام
محنو عليه كأنه مهد لطفل فيه نام

ومثل هذه اللوعة نجدها في شعره الواقعي-الرومانتيكي ، وبخاصة شعره الوطني ، وأبدع ما وقفنا عليه مثالاً لوجده وألمه ، تصويره أبناء بيروت الذين حسدهم الطليان بمدافعهم في عام ١٩١٢ في قصيدته «اعانة بيروت»[1] التي قال فيها :

بلادي لا يزال هواك مني كما كان الهوى قبل القطام
أقبل منك حبث رعى الأعادي رغاماً طاهراً دون الرغام
وأفدي كل جلمود فتيت وهمي بقابل القوم الثام
فكيف الشبل مختبطاً صريعاً على الغبراء مهشوم العظام
وكيف الطفل لم يتنل لذنب وذات الخدر لم تهتك لذام

ومع رومانتيكيته المجنحة والممزجة بالواقع ، فلم يخل شعر الخليل من بذرات الواقعية ، ونلمس ذلك في شعره القصصي ، وشعره الاجتماعي وشعره الشعبي الذي كان يقرع فيه الشعب لاستنامته على أعمال الغاصب ، وعلى عسف الحاكم ، في أسلوب موضوعي ، وأجل ما وقفنا عليه في هذه الناحية مقطوعته « دمعة على الشام »[2] في أيام الطاغية جمال ، وقد جرت في أسلوب واقعي ، مجرّد من الذاتية ، وفيها يقول :

يرق الذرى ويعيش مغتبطاً شعبٌ على أعدائه خشنُ
شعب يحب بلاده فإذا هانت فما لقاؤه ثمنُ
تبكي العيون «الشام» راسفةً في القيد محدقة بها المحن
أنصارُ أسعار بغيتها وعيون تلك بهم وتمتهن
أشقى البشاعي في مرابعه شعبٌ يعيش وما له وطنُ

* *

هذه إلمامة عاجلة عن الرجل الحر الجريء الذي فقدته البلاد العربية ، الرجل ذي البديهة التي كانت تغلي كالمرجل ، والخاطر الذي ينهل كالمطر[3] الرجل الذي حاولت أحداث الحياة ونوازلها أن تحد من شعوره الوثاب ، فتلقى من عزيمته الوقادة ، فبقيت مشاعره وعزيمته

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٠١
(٢) من أنوار شاعر مصر — حافظ ابراهيم — كتاب المنذوري « الشعراء الثلاثة »

كالجمرات المتقدة وإن غطتها ذرات الرماد ، الرجل الذي عاش عاكفاً على محراب الفن ، وسادناً من سدنة الشعر المبتكر الجديد ، فأوسع صدر العربية للخيال الخلاق ، وأفسح فيه للقصص والتصوير [1] وعلّم جيلاً من الأدباء معنى الشخصية الأدبية ، والوحدة الفنية ووحدة القصيد ، فتأثرت به كوكبة من الموهوبين أمثال خليل شيبوب ، والدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والدكتور ناجي ، وإيليا أبو ماضي ، وإلياس فرحات ، وعمر أبو ريشة وغيرهم كثيرون ، تأثروا به تأثراً موضوعيًّا أو فنيًّا أو توجيهيًّا ، فتركت روحانية هذا المعلم — الجبار وقوته الفنية في نفوسهم أبعد الآثار ، وما قام به هؤلاء الأدباء من تجديد ، وما تناولوه من موضوعات ، إلا ألق الطبيعي لرسالة الخليل [2] وفي ذلك يقول الدكتور أبو شادي في آخر ديوانه «أنداء الفجر» :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدني صغيراً بقيت أهتدي بهديه ، وأثره في شعري أثر عميق لأنه يرجع الى طفولتي الأدبية ، ويصاحبني في جميع أدوار حياتي ، وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي ، فهو في الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعي لتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ، ناظرة الى آخر الصفا والى معلمي الأول بحنان عميق . . . » [3] .

*

هذه لمحات من آثار الخليل في الأدب والأدباء ، وهذه بعض سماته العالية المتسامية ، وإنا لنشعر شعوراً خالصاً بالألم العميق ، لحرماننا من شخصيته وإن كنا نجد شيئاً من العزاء الحق في تراثه الانساني والأدبي الباقي ، وفي تتويج رسالته التجديدية الجريئة قبيل موته ، وحسب الرجل رضواناً أن تبقى الشعلة الفنية التي أوقدها ، هادية وساحية إلى التجديد ، بل التجريب في النثر والشعر .

— أثاب الله مطران كفاء ما قدم . . . ثمار ، وفتح القلوب لفيض من رحمته الخلقية النبيلة .

— وفي ذمة الفن ونور الخلد .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

---

(١) من أقوال شاعر مصر ، حافظ ابراهيم — عن كتاب الدكتور : « الشعراء الثلاثة » ص ٣٤

(٢) مقال في آخر ديوان به أنداء الفجر — للدكتور أبو شادي بعنوان « مطران وأثره في شعري » من ص ١١ — ١٢٨ الطبعة الثانية — يوليو ١٩٣٤ (٣) ديوان أنداء الفجر — ص ١٢٨